2- الأسلوب الإقناعي الحجاجي في خطاب الرئيس رفيق الحريري

The Argumentative style in the president

بقلم الدكتورة: هبة الحشيمي
الباحثة أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية
Drhibahouch@hotmail.com

تاريخ الاستلام:2021/10/31 **تاريخ القبول: 2021/11/20**

ملخص:

تندرج خطابات الحريري في إطار عمل حضاري نضالي، مما يجذب المختصين في البلاغة للانخراط في تحليله، وخصوصًا المهتمين بنظرية الخطاب لأنه مسؤولية جسيمة.

يندرج هذا البحث تحت تحليل الخطاب السياسي والاجتماعي والاقتصادي للرئيس الشهيد رفيق الحريري، على منهج الحجاج وعملية تأويل الكلام.

ويعتمد البحث دراسة الأسلوب الإقناعي والحجاجي في خطاب الرئيس رفيق الحريري. هو موضوع بحثي العام الذي ينهض على دعامات أساسية وهي: دراسة الخطاب بالأبعاد الإنسانية والذاتية والإصلاحية، وإظهار خصائص المفردة ودلالتها ضمن الجملة، ودراسة الخطاب بسبر غور المنهج الحجاجي الإقناعي التأثيري، لكشف الدلالات السياسية والجدلية والقضايا المتعلقة بالإصلاحات والتقدم والتطور.

فنحن بحاجة إلى ثورة إعلامية يعرفها العالم للسعي الحثيث لتأويل الماضي الوطني والقومي، وتقوم التجارب الماضية، لمصلحة أطروحات سياسية صريحة حينًا، وضمنية أحيانًا. وفي عملية التأويل هذه تمارس كل الانزلاقات الخطابية كي لا يقف المتلقي العربي مستهلَكًا فقط بل يتكون لديه قدرة على كشف الخدع والأضاليل ويقف اللعب بعواطف الناس دون أي اعتبار ولا احترام للمستمع وللحقيقة. وفي ذلك إفساد للديمقراطية باعتبارها نظاما تخضع الاعتبارات المصيرية فيه للرأي العام عند المواطنين.

ومن هنا يكتسب التحليل البلاغي لهذا الخطاب أهمية قصوى حيث تتدخل الحجج والضوابط ليرتسم حدود التخاطب المسؤول والمعقول والمتزن الذي يسيّر المجتمع في الاتجاه الإيجابي، محافظًا للمكتسبات وحريصًا على تحقيق مكتسبات جديدة.

Summery:

Hariri's speeches fall within a framework of struggle civilized work, which attracts specialists in rhetoric to engage in its analysis, especially those interested in the theory of discourse because it is a huge responsibility.

This research falls under the analysis of the political, social and economic discourse of the martyred President Rafik Hariri, on the approach of the pilgrims and the process of interpreting speech.

The research adopts the study of the persuasive and rhetoric method in President Rafik Hariri's speech, which is a general research topic that is based on the main pillars: the study of the discourse in human, subjective and reform dimensions, and to show the characteristics of the singularity and its connotation within the sentence, and the study of the

We need a media revolution known to the world to strive for the interpretation of the national and national past, and past experiences are based, in the interest of political theses that are frank at times, and sometimes implicit. In this process of interpretation, all rhetorical slides are practiced so that the Arab recipient not only stands consumer, but has the ability to detect tricks and misalities and stop playing with people's emotions without any consideration and respect for the listener and the truth. This is the corruption of democracy as a system in which crucial considerations are subject to the public opinion of citizens.

Hence, the rhetorical analysis of this discourse is of utmost importance, as arguments and controls intervene to characterize the boundaries of responsible, reasonable and balanced speech that follows society in a positive direction, preserving the gains and guarding to achieve gains.

المقدمة

الأسلوب الإقناعي والحجاجي في خطاب الرئيس رفيق الحريري هو موضوع بحثي العام الذي ينهض على دعامات أساسية وهي: دراسة الخطاب بالأبعاد الإنسانية والذاتية والإصلاحية، وإظهار خصائص المفردة ودلالتها ضمن الجملة، ودراسة الخطاب بسبر غور المنهج الحجاجي الإقناعي التأثيري، لكشف الدلالات السياسية والجدلية والقضايا المتعلقة بالإصلاحات والتقدم والتطور.

تسويغ اختيار الموضوع وأهميته

لمَ الأسلوب الإقناعي الحجاجي في خطاب رفيق الحريري؟ ولمَ الجدلي؟ ولمَ رفيق الحريري؟

إن بحثي هو إعادة بناء استراتجيات بلاغية جدلية إقناعية في خطاب الحريري من خلال مناهج التحليلي ومن معايير الحكم الإنسانية والتفاعلية الذاتية. وقد أثبت هذا البحث تجدد آفاق تنجلي عن معان وقيم جديدة جدلية معبرة عن النزعة التداولية اللسانية لنمذجة الفاعلية التدليلية.

لمَ الجدلي؟ تقتصر الدراسة على البنيات التركيبية النقدية ودراسات التكوينية الحجاجية إظهارًا للقضايا اللغوية الدلالية في سياق الخطاب. فمفهوم الموضع يرجع في جذوره إلى التنظيرات الأرسطية للاستدلالات الذي تناوله أرسطو في كتابي التحليلات (نظرية القياس) و(نظرية البرهان)[1].

لمَ الحريري؟ شخصية عالمية وتاريخية لا تنحصر بالأعمال السياسية والتجارية بل بالأعمال الخيرية وأعمال الإحسان أيضا، ومشاركته الناس من خلال مناسباتهم ونشاطاتهم وفئاتهم وشرائحهم الاجتماعية المختلفة أيضا. فقبل أن يعرفه الناس في نشاطه كرجل سياسي فقد كان معروفا في حقول الخير. أنشأ عددًا من الشركات في مختلف بلاد العالم. كان له دور بارز في إنجاز اتفاق الطائف الذي أنهى الحرب الأهلية اللبنانية، ثمّ تولى رئاسة مجلس الوزراء لأول مرة عام 1992. أعاد إعمار بيروت وعرف بوسطيته السياسية، وأعماله الخيرية، وصداقته للكثير من زعماء العالم. أثار

(1) لقد ذهب بيير دولاراميه (1555) إلى حد القول بأن أرسطو كان يتطلع إلى صياغة منطقين، منطق العلم ومنطق الرأي. نقلا عن :

Ekkehard EGGS,L actualite du debat sur les topoi dans la rhetorique et la dilectique traditinnelles, in lieux communs, tropoi, stereotypes, clichés, plintin C. (ed.). Paris, Editions kime, p.393 J. C. Anscombre et O.Ducrot . largumentation dans la langue, Pierre Mardaga editeur, 2ed, 1988, Liege Bruxelles, p.168.

اغتياله في بيروت يوم 14\2\2005 عاصفة لم تهدأ حتى اليوم، وما زال اللبنانيون جميعًا بانتظار معرفة الحقيقة.

ماهية الخطاب تحليلًا ومنهجًا:

نجد في لسان العرب تعريف الخطاب بأنه:» مراجعة الكلام بين طرفين أو أكثر حيث يتم تبادل رسائل لغوية»[1].

ويتكرر التعريف أيضًا عند التهانويّ بأنه « توجيه الكلام نحو الغير للإفهام»[2]، أما عند أبي البقاء الكوفي في الكليات «والكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع، فإنه لا يسمى خطابًا»[3].

يعتمد الخطاب على مسار تواصلي إلى الأدب الحديث خاصة في مجال النقد، بحيث يرتبط بالتراث العربي ارتباطًا هامّا في هيكله، هذا ما فصّله الدكتور عبد الرحيم الخلادي في كتابه « الخطاب وتحليل الخطاب» بأن الخطاب هو» مظهر نحوي مركب من وحدات لغوية ملفوظة أو مكتوبة تخضع في تشكيله أو في تخزينه الداخليّ القابلة للتنميط والتعبير، مما يجعله خاضعًا لشروط الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه»[4]. ويقدم أصحاب «معجم اللسانيات» تحدّيات متنوعة للخطاب «يعني اللغة في طور العمل، أو اللسان الذي تتكلف بإنجازه ذات معينة أو... وحدة توازي أو تفوق جملة تتكون من متتالية... لها بداية، أو هو مرادف للملفوظ ويتجلى في استعمال الخطاب لكل ملفوظ يتعدى الجملة ناظرًا إليه من وجهة قواعد تسلسل متتاليات الجمل»[5]. ها هي أساسيات لغوية أو أخرى معرفية تتداخل لتكوّن عملية الاتصال التي تعتمد على فهم السياق، لتخلق داخل النص سياق آخر له مؤشراته وبنيته التأويلية والاستنباطية للرموز، متمسكًا بالوظائف التعبيرية الانفعالية واللغوية والكلامية، فنجد براون بول يقول: «إن عملية الاتصال لا تعتمد فقط على فهم السياق،» بل إنها تغيير ذلك السياق، ويمكن أن تنشئ داخل السياق النصيّ سياقًا آخر له سرده الخاص من المؤشرات، وبالفعل يمكن اقتحام

(1) ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ج3 (خ-د-ذ)، مادة (خطب) 1994م، ص261.

(2) محمد علي القاروقي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق د. لطفي عبد البديع و.د. عبد النعيم محمد حسنين، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1972م، ج2، ط2، ص175.

(3) أبو البقاء الكفوي، الكليات، معجم المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، بيروت، دار الرسالة 1412ه، 1992م، ص173.

(4) الحوار المتدن، العدد 2979، عبد الرحيم الخلادي، «الخطاب وتحليل الخطاب»، 2010-4-18 ، ص1. نشر على موقع Dr.khaladi.com

(5) - سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1988م، ص17.

سياقات جديدة داخل السياقات المركبة»[1]. ويؤكد فوكر على ضرورة التمييز» بين لغة الخطاب ولغة النص المستلزمة دراسة الوحدات المتماسكة من حيث التركيب البيانيّ. أما الخطاب فهو العملية المعقدة من التفاعل اللغوي بين المتحدثين والمستقبليين»[2] من خلال الوظائف اللغوية التي حددها جالبسون ابتداءً بالوظيفة الإفهامية والانفعالية والجمالية. يعتمد تأويل النص على درجة من الوعي والثقافة لفهم وتحليل الخطاب المرتبط بالمرسِل وترجمة أفكاره.

منهجية خطاب الشهيد

ربط الحريري خطاباته بالواقع والأحداث المستجدة دائمًا كأنها سلسلة تمثل الأحداث التي في مسرح الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فيشعر القارئ بأنه أمام مشاهد متكاملة من الأفكار والرؤى، فحين قال: « أدركت الحكومة اللبنانية السابقة أهمية الإحصاءات الاقتصادية الشاملة، الأمر الذي يدخل ضمن سياسة الحكومة الاقتصادية، ومن في ظل محليات والإمكانيات المحددة، لم تستطع إدارة الإحصاء المركزي القيام بهذه المهام في حينه، علمًا أنها عالقة على تطوير طاقاتها الذاتية الآن». ألقى كلمته في مستهل المؤتمر الصحافي الذي عقدة في السرايا في2003 /5/19.

وضع الحريري المتلقي على بيّنه من الموضوعات المطروحة بملخص مبسّط في وقت سماعه وإن كان غير متاح للأحداث في ما قبل، ويكمل الرئيس في المؤتمر عن الحسابات القومية لعام 1997، فبلغ الناتج المحليّ المجمل في حينه أكثر من 24 ألف مليار ليرة، ليبلغ الدخل المجمل المتوفر، والذي يتكون من مجموع عائدات اللبنانيين المقيمين سواء أكان ذلك نتيجة لعملهم أم جراء تحويلات دولية خاصة بلغت 29 ألف مليار ليرة، وهو يزيد الناتج المحلي القائم بنسبة 20 %» [3]. وهنا تتحقق علمية السيوسيولوجية ليبريودو بالتركيز على الفرضيات، والانطلاق من المفاهيم الموضوعية، واستعمال المناهج الكميّة والكيفيّة للتحقق من النتائج المتوصلة إليها، والتأرجح بين منهجين الفهم والتفسير معا. تتميز سيوسيولوجيا الرئيس بالطابع العلمي والمنطقي، والابتعاد عما هو السياسي الإيديولوجي، دراسة العنف الرمزي وفق مقاربات علمية دقيقة صارمة، دون إدخال ما هو شخصي وسياسي في البحث العلمي. يطرح الرئيس من

(1) براون بول، تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق محمد لطفي الزلطني ومنير التركي، جامعة الملك سعود، 1997م، ص59.

(2) - R .Fowler ,Linguistic Outicism ,Oxford university press, 1975, pp 80-90

(3) - اللحام، د. محمد سعيد، مسيرة الشهيد رفيق الحريري،تصريحات الرئيس، المركز الثقافي اللبناني، ط1، 2005.

خلال الحديث ضرورة حياد الأنا عندما يبحث في مشكلة مجتمعية قوامها التنافس، ومن ثم الحقيقة المضمرة في الخطاب السياسي التي تتأرجح بين منهجي الفهم والتفسير معًا.

لا نجد خطابًا مفصولاً أو معزولاً عمّا قبله أو عمّا سبقه فقال الحريري: «إن دعوتنا إلى الابتعاد عن المنازعات والمشاحنات، بسبب دقة المرحلة لا تعني أننا نقبل تحت شعار الهدوء، أن نتنازل عن حقٍ لأي لبناني، سواء في مدينتنا أو في مدينة أخرى مُسلِما كان هذا اللبناني أم مسيحيًّا» [1]، وقد ظهرت في عدد من الخطابات وهي الدعوة إلى السلم والابتعاد عن المنازعات. «فالمرحلة مرتبطة إلى حد كبير بالأوضاع السائدة في المنطقة ما قبل الخروج السوري، فلا تعني هدنة الحرب أننا في سلم، بل إننا في ترقب دائما للأوضاع وانطلاقًا من اللحظة المناسبة لا يسمح بمسح أي كرامة لبناني»؛ ابتعد الرئيس من مبدأ حب الذات أو حب المجاملة من الطرف الآخر على حساب كرامة اللبناني، فارتباط هدوء المنطقة بحقوق وبكرامة اللبنانيين مع مبدأ عدم التمايز بين المسحيين والمسلمين يؤمن حياة ترفع من مستوى المجتمع، ومدّه بعناصر سليمة يحتاج إليها المجتمع، ليضع مبدأ السلام في قبضة المواطن للحفاظ على سلامته فتلازم الحفاظ على كرامة الإنسانية متلازمًا مع السلام في المنطقة. ويعني تلازم رفع الظلم ونشر العدالة بين المجتمع تلازمًا مع الهلاك وانفجار المجتمع أو سيطرة الأعداء عليه. وبهذا الترابط، يعتمد قطب الإرسال (الحريري) إلى نتاج الأفكار المتسلسلة والمنطقية في ترابطها، وإرسالها إلى قطب التلقي من جهة المرسل إليه، أكان حاضرًا أم مستمعًا للخطاب أم غائبًا عنه، وهذا الترابط أدى الغاية البراغماتية العقلانية من ناحية وتأثيرية من ناحية أخرى. خمسة خطابات قد طرحت في هذا الخطاب؛ أولاً: الدعوة إلى السلام، ثانيا: التذكير أننا في هدنة وليس في سلم، ثالثا: حفظ حقوق اللبنانيّ، رابعًا: المساواة بين المدن والقرى في لبنان، خامسًا: المساواة بين المذاهب.

«لأن الحريري أب لكل اللبنانيين ويحتفى به» على حد قول مدير المدرسة الأليزية إيلي مسلم، ترجل الحريري وقال: « عندما علمت أن مدرسة الأليزية اختارتني من أجل تكريمي كأب شعرت بمزيج من الفخر والخوف»[2]. تظهر في هذا الخطاب البرغماتية التداولية العقلانية والتأثيرية لتغدو تكاملية هادفة لما تحدث وخطط ونفّذ له مسبقا، وبهذا يتّجه الخطاب ليكون كلامًا وظيفيًّا دلاليًّا في خدمة الأهداف العامة لأنه يعي جمهوره

(1) اللحام، د محمد سعيد، مسيرة الشهيد رفيق الحريري، تصريحات الرئيس، المركز الثقافي اللبناني، ط1، 2005م، ص52-51.

(2) اللحام، تصريحات الرئيس، ص 55

ويعي ثقافتهم وقدراتهم الفكرية. هكذا نتعرف على خطاب الحريري الذي غدا شجرة متكاملة تنمو مع تطوره العقلي والمنطقي لأبنائه، ويتجذّر من تماسك مواضيعه ويتآلف مع الخطاب النصي ليكونا وحدة سلام في المجتمع.

ألقى دولة الرئيس رفيق الحريري كلمة، بمناسبة انطلاق جريدة المستقبل

وشكرهم على الدعوة وشكر الحضور وشكرهم على كلمات الترحيب وكل ما قيل في هذه المناسبة. ليس سهلاً أن تنجح أي مطبوعة في بلد مثل لبنان، حيث المنافسة شديدة جدًا وحيث الكفايات وحيث العراقة في الصحافة، صحافتنا نعتز بها، عمرها يزيد على مئة عام ولها تاريخ طويل ونضال طويل في الحفاظ على الحريات وعلى الديمقراطية في هذا البلد الصغير، في هذا الشرق الكبير الذي نحبه ونعشقه.....

إن مناسبة الذكرى الرابعة لانطلاق الجريدة هي تأكيد على اتباع نهج الحريري للسلام في المنطقة والازدهار والتطور لأتباعه، والاستمرار في النجاح. يؤكد الرئيس استمرار النهج والمسيرة باستعماله حروف التوكيد، مثلا تجده في التكرار اللفظي حرف التوكيد (أن) (أود أن \ أؤكد أن \ تحاول أن\ أود أن\ إن قرار)، خمس مرات في المقطع الأول بعد المقدمة التي لا تتجاوز الأسطر الخمسة. والتكرار لحرف (لا) ثلاث مرات في الذي يليه مباشرة (لا أتدخل\ لا أوجه\ ليس معقولا) حروف التوكيد تتغلب على عدد حروف النفي. وهذا إشارة إلى تنفيذ ما يخطط له الحريري ولو بعد حين.

فالصدق مفتاح النجاح، والإصرار يجلي حقائق ويرسم خريطة الطريق الذي يؤدي للنجاح. وضع منهجيته وحدد نقاط معالجتها، وتسلسله في سياق كلمته، مما رسم استراتجية للوظيفة التداولية بسهوله وانسياب؛ مما يعكس على المستمع والمتوقع راحته المستقبلية بأي خطاب سياسي. ولأن الحريري كان يحدد النقاط الأساسية الواضحة دون المزج أو الخلط بين النقاط أدت الوظيفة الكلامية وظيفتها بكل سهولة، وبعيدًا عن التكلف مع المحافظة على فهم المتلقي للمواضيع التي تناولها في خطابه.

يذكر الحريري في النتائج التي سيتوصل أو وصل إليها. فيقول «إذا كنتم تتحدثون عني فأنا لن أجبركم، أما بالنسبة لغيري فلا أعرف، ولكن بالتاكيد أنا لن أجبركم. سألوني: هل يُشطب شي نكتبه فأجبتهم:» حتما من جهتي، كلا».

كأن الحريري يتبنى في خطابه المقارنة الماركسية ذات الأساس الجدلي أي على أساس أن التنافس والصراع وظيفتان أساسيتان للمجتمع. والجميع قائم على صراع الطبقات الاجتماعية ضمن حقول وفضاءات مجتمعية فرعية قبل أن يتحول إلى ظاهرة

اجتماعية عامة.

فيطابق (بيير بورديو) الذي بلور نظرية الفعل التي ترتبط بمفهوم الهابتيتوس بمعنى أن الفاعلين المجتمعين يطورون مجموعة من الاستراتيجيات التي يتمثلونها عن طريق التنشئة الاجتماعية، فتسليم الحريري لبعض الناس الذين لن يجبرهم على كتابة مقالات لا يقتنعون بها لمجرد المصلحة السياسية لصاحب هذه الصحيفة؛ يضعهم في دائرة الهابيتوس الذي هو عبارة عن مجموعة مواقف ومكتسبات وقيم وعادات وأعراف وخبرات وتجارب ومعايير التي يكون الفرد قد استعمرها عن طريق التنشئة الاجتماعية بغية استخدامها أثناء مواجهة الوضعيات الصعبة والمعقدة في العالم الاجتماعي. وعلى ما سبق، فإن البناء الخطابي يوفق بين الفعل والبنية أو يجمع بين الفاعل المجتمعي وبنية المجتمع؛ فكل واحد من هذين العنصرين يؤثر في الآخر.

بمعنى أنه لولا وجود البعض (بعض الصحافيين الموجودين في صحيفة المستقبل الذين تحدث عنهم الحريري في خطابه) لما كان هناك تفاعل وتماثل بين الفاعل والمجتمع الآخر، وبين الضرورة والحرية التي ذكرها الحريري في قوله «إن هذه الجريدة فعلًا جريدة مستقلة». وبهذا يكون الخطاب قد وفق بين التصور التفسيري، والتصور الإنساني الذاتي النفسي، أي أن الحريري لا ينكر دور البعض في التأثير على الأفراد سلبًا وإيجابًا، لأن ثمة ضرورة حتمية مجتمعية تمارس تأثيرها على الفاعلين المجتمعين. وفي الوقت نفسه، يثبت أن للإنسان دورًا مهمًا في تغيير المجتمع بإنتاج إنسان فاعل ومؤثر في المجتمع. وبهذا يتجاوز خطاب الحريري الثنائية الذاتية والموضوعية إلى الثنائية الفعلية والبنيوية باعتبارهما ثنائيتين ترسخان في خطاب الحريري لتكونا عنصرين وسيطيين وجامعين وموحدين للمجتمع.

ويكمل الحريري مضيفًا «إن الحرية في لبنان هي الهواء وهي الأوكسجين، وهي كل ما لنا في هذا البلد وما يميز هذا البلد»، القسم الثاني من الخطاب جاء تتمة لفكره وفكرته بتواشج معرفي يهدف إلى بناء ذهنية الإنسان المتلقي، وشحنه بالقضايا المصيرية الثقافية والسياسية وذلك بتكرار كلمة البلد ثلاث مرات في مقطع لا يتجاوز ثماني عشرة كلمة يقابلها تكرار لكلمة الحرية ثلاث مرات، وبذلك تترسخ كلمة الحرية وكأنها قانون وحكم ممنهج للرئيس في بياناته وأصول مخططاته لطريق البلد لبنان بالرشد والاكتفاء الذاتي، وبرسمه لمنهج الحرية ضمن جريدة المستقبل الناطقة بمنهج الرئيس. هكذا حدد الحريري نقاط منهجه الثابت على المستقبل بهيمنة عاطفية وعقلية

مميزة ثقافية تنظيمية سياسية. وسيطرت هذه الهيمنة بالتأثيرات الاجتماعية والأخلاقية انسجامًا لطمأنة المواطن بمواطن القوة لديه؛ وهذا الاطمئنان جاء ليسبغ على المواطن السكون والاستقرار في أخذ القرار الصائب والمناسب.

مؤتمر الاقتصاد اللبناني وأبعاد التطورات الإقليمية: بتاريخ 7تموز 2003

إن انسجام مجموعة خطابات وتواليها بشكل رسالة أو رسائل بين أطراف مختلفة؛ جعلت من خطاب الرئيس خطاب كرد على تلك الرسائل بدءًا من المقدمة حيث قال: « لفتني كلام الصديق الأخ عدنان القصار حول مؤتمر باريس (2) ... وأعتقد أن الأمر من مسؤولية الجميع في الدولة وليس من مسؤولية الحكومة وحدها. فأردت الإشارة من الأخ عدنان إلى أن محاسبة الحكومة في هذا الإطار هي محاسبة في غير محلها....

وأكد الرئيس الحريري في ختام كلمته أنه من المفيد أن يضع مؤتمركم تصورًا للبنان خلال العشر سنوات المقبلة، كيف سيكون، وما هو دوره، وما يحتاج إليه؟ وهذا الأمر يتماشى تمامًا مع ما تفكر به الحكومة في الوقت الحاضر، وفي المستقبل إن شاء الله»[1].

المقدمة شكلت استنطاقًا للرموز والإشارات هادفةً إلى إعطاء نتيجة صريحة لمضمون خطاب عدنان القصار والرسالة التي يوّد أن يرسلها عبر المؤتمر إلى الحضور، وأن يؤطرها في سياقها الاجتماعي والإيديولوجي والواقعي والجدليّ غير النهضويّ. ومن هنا تبدو أبعاد الخطاب المتنوعة والتي ظهرت على إنتاجية البعد الذاتي والبعد الإنساني والبعد الواقعيّ والبعد الجدليّ.

إنتاجية البعد الذاتي: إن فك شيفرة النص بالتعريف على ما وراءه من افتراضات أو ميول فكريّة أو مفاهيم، وفك الشيفرة اللغوية يهدف إلى فهم المضمون العام للخطاب الذي يود المرسِل أن يرسلها يضيف الرئيس: عنوان المؤتمر عنوان كبير: الاقتصاد اللبناني وأبعاد التطورات الإقليمية هذا أمر في غاية الأهمية، والبحث في هذا الأمر الآن وفي هذا الظرف بالذات يدل على أيضا على بعد النظر، وعلى ضرورة أن يكون لبنان متأهبا ومستعدا لمواكبة التطورات التي نعيش مخاضها الآن. وفي رأيي المتواضع في هذا الإطار، علينا أن ننظر إلى لبنان، نظرًا للأوضاع السياسية السائدة في البلاد.» بقدر ما أدرك الرئيس أهمية أبعاد الخطابات السابقة وأهدافها يحصل التحليل في خطابه، فمن المؤكد إن لم يكن في خطابه أثر اتصالي هادف، فذلك دون جدوى. يمتلك الحريري وعيًّا ثقافيًّا بالأمور الفكرية والسياسيّة والاقتصادية، فكان التأثير إقناعيًّا لأنه

(1) - اللحام، د محمد سعيد، مسيرة الشهيد رفيق الحريري، تصريحات الرئيس، المركز الثقافي اللبناني، ط1، 2005م، ص-77 80-79-78.

كان عقليًّا، أتى عن خبرة اقتصادية في السوق لا تقل عن عشرين عاما، فالمعطيات أو الفرضيات تستوجب منا الانتظار. وشحن التأثير العقلي كان بحضور ضمير المتكلم، بالاسم (برأيي) وإتباعه بنون الجماعة (علينا) والفعل (ننظر) وأدوات التأكيد(أن)؛ يقول حسن حنفي إن استجلاء حضور المتكلم في خطابه لا يهدف إلى التعرف إلى شخصية المتكلم لذاتها، ولكن من أجل اختيار انسجامها مع القصدية الأساسية، التي ينبري الخطاب لإشاعتها من جهة، واكتناه مدى فعل حضورها في إذكاء تلك الخطبة وتقوية فعلها من جهة ثانية. وجود ضمير المتكلم بشكل مباشر وغير مباشر لترتسم الانفعالات الذاتية، لتستتبع بضمير الجماعة (نحن) لأن المتكلم غدا فردا في جماعته، وتفكيره في الأزمة الاقتصادية تخطى شخصه بشكل تام، حتى لنرى دمج المتكلم مع المخاطب واضحا، وفي ذلك تأدية لوظيفة انفعالية عمومية لا خصوصية تعبر عن وجدان الجماعة وقناعاتهم. في الفقرة ذاتها نلاحظ نسبة حضور ضمير المتكلم بصيغة الجمع بنسبة (90 %) فعلينا أن ننظر (تكررت مرتين) تدعونا بمقابل نسبة حضور ضمير المتكلم المفرد التي لا تتعدى 10 %.

وهذه النسبة تؤكد غياب الأنا بوجدان الجماعة وضميرهم. ولعب فعل (ننظر) ومرادفه الذي تكرر في فقرة لا تتعدى عشرة أسطر، حيث يدعونا هذا الفعل إلى إنتاجية حضور ردة فعل يقابله التفاؤل فيقول الرئيس ليختم هذه الفقرة «أعتقد أن نظرة واقعية للأمور تدعونا إلى تفاؤل أكثر من أي شيء آخر، وهذه ردة الفعل تحمل إنتاجية تداولية ترتقي بالمستقبل وبتطوير حاجاته. ورود ردود الفعل العشوائية غير المنظمة، أو في استقطابها لدرجة تحميل الخطاب بالآمال والتفاؤل المنطقي والعقلي على الفتنة وجروح الوطن والأوضاع المستجدة فيه. ومواجهة الأوضاع برؤية ورؤية تفاؤلية تستدعي مسؤولية جماعية لا فردية أمام الأزمة الاقتصادية السياسية والاجتماعية. فطموح اللبناني لا يقف أمام ألعاب سياسية دولية ومحلية تقرر مصيره، بل إن لم يمتلك تلك الرؤية التفاؤلية سيقف أمام التحديات في تحديد مصيره ومستقبله. ويبدأ الرئيس الفقرة الثانية ليكمل الفقرة الأولى بقوله: « التفاؤل أولًا لأن الشعب اللبناني أثبت في كل الظروف أنه قادر على تخطي العقبات والصعوبات مهما بلغ حجمها، ثانيًّا: إن ما قام به الشعب اللبناني خلال السنوات العشر الماضية وضع البلاد أمام مرحلة التجديد، يستطيع الإفادة مما يحصل في العالم، خصوصا الاتفاقات التي وقعها مع الاتحاد الأوروبي».

بعد تكرار فعل (ننظر) تجد ردة الفعل أكثر من أي موضع، ويبتدئ بها الفقرة لأهمية

موقعها ووظيفتها الإقناعية، إضافة إلى وضوحها في كلام الرئيس، لأنها صادرة عن ضمير الجماعة (نحن) في عدة مواضع. فيقف «الرفيق» أمام التاريخ والأجيال في تحمّل المسؤولية بنقل الجمهور والانفعال المتشبثين بالرؤية، وبخروج لبنان من وضعه الاقتصادي المتأزم إلى مستوى التأثير الإقناعي، بعيدًا عن الاستدلال المعقد، وبعيدا عن صيغة الفتنة والكره والقمع، وبإلحاح إلى التفاؤل بمستقبل واعد، وبتخطي الصعوبات ليقدم طروحات جديدة، وهي الاتفاقات مع الاتحاد الأوروبي ومجموعة اتفاقات أخرى.

فالأبعاد الإصلاحية تأتي من الشعب وتنظيم علاقات خارجية لتوسع أسواق العمل، وفي هاتين الحالتين تعتبر البنية التحتية هي عملية تفاعلية وتأثيرية متبادلة ضمن مجالات عديدة، أولها البعد الإصلاحي في الدائرة الاجتماعية، وثانيها العلاقات الدولية الخارجية، وثالثها البعد الإصلاحي في البعد الوطني، ويعتبر مفتاح تلك الإصلاحات التفاؤل.

إنتاجية البعد الحجاجي

يستكمل الشهيد خطابه في المؤتمر «الاقتصاد اللبناني وأبعاد التطورات الإقليمية» وتبدو أن ردة الفعل على الفقرة السابقة متعلقة بفعل (وقع) الذي أسند إلى رؤية لبنان، «يستطيع الإفادة مما يحصل في العالم خصوصا الاتفاقات التي وقّعها مع الإتحاد الأوروبي»، لجأ الرئيس إلى ميزان يُحدد على أساس نجاح الحياة الاقتصادية وفشلها في الاتفاق مع الآخر. وهذا التعامل مع الأسرة الأوروبية، سيشكل نجاحًا يصلح الوضع الاقتصادي، فالانتماء داخل دائرة الدولة دون التميز بين الانتماء الديني أو المذهبي أو الأيديولوجي والعرقي والجغرافي، هو البعد الأساسي للنجاح. فلا يكتمل الاقتصاد إلا مع الانفتاح على التعامل بالحوار مع الدول الغربية. سعى الرئيس إلى بناء علاقات مختلفة تحمل في طيّاتها البعد الإصلاحي المتعلق بوسائل التعامل للمنتجين اللبنانيين وتوسيع السوق التجاري.

الإصلاح والانفتاح يهدفان إلى استعمال الإيجابية للبعد الإنساني، ويقومان عبر الاتفاق مع الاتحاد الاوروبي بالاقتصاد الحر المتميز به لبنان، والأمر الآخر التراث الموجود لدينا، الأنظمة بمعنى الاقتصاد الحر. فالجماعة الإنسانية بتعبير الحريري هي الأسرة الإنسانية، قناعةً منه بأن الانفتاح على الأسواق والاتفاقيات غاية ننطلق منها لتحسين الاقتصاد اللبناني «فلديهم قدرات شرائية مرتفعة نسبيًّا وتصل حوالي 550 مليون... هذا الأمر مهم جدًا وعلينا أن نتعوّد على الإفادة من اتفاقية الشراكة».

فالاقتصاد هو العلاقة الجدلية بين السياسيين والمجتمع هو أساس المنهج التحليلي السياسي، فمن خلال دراسة أهم الأفكار والآراء التي نشأت على صعيد العلاقات الدولية والتجارب الذاتية بالمجتمع، والغوص في الأعمال الاقتصادية والتجارية لتسييرهما في الأطر الاجتماعية التي تنطلق فيها الأنظمة الاقتصادية.

فالحريري لن ينظر إلى المستقبل دون الأخذ بأمر «الأنظمة والتاريخ والتراث الموجود لدينا»، الذي عمل به منذ الاستقلال. فالبعد الإصلاحي للاقتصاد يبدأ من ذواتنا ومن تاريخنا ومن تراثنا بكفاءتنا الزراعية والصناعية والخدماتية. فالأبعاد الإصلاحية تأتي من الشعب وتنظيم العلاقات الخارجية لتوسيع سوق العمل. وفي هذه الحالة تعتبر البينة التحتية هي عمليات التفاعل والتأثير المتبادل ضمن مجالات عديدة. أولها البعد الإصلاحي في الدائرة الاجتماعية، وثانيا العلاقات الدولية، وثالثًا البعد الإصلاحي في الدائرة الوطنية، يعتبر مفتاح تلك الإصلاحات هو التفاؤل.

وإذا تتبعنا كلمة (التفاؤل) في بداية الفقرة بشيء من الإيجابية، والمقارنة التي حصلت بين الأعوام العشرة الماضية وبين الأعوام العشرة المقبلة، نجعل التفاؤل بالعشر السنين المقبلة القادمة حتميا ولا مجال للاختيار. والدرس الذي تعلمناه من سنوات الحرب كفيل بأن يجعل اختيارنا هو التفاؤل بشكل حتمي، للحصول على النجاح في الاقتصاد والقيام باتفاقيات دولية؛ لأنّ الرئيس يعي حصيلة التجربة الذاتية والجماعية.

إن ما تقدمه الاتفاقيات سلسلة من المحاولات للخروج من الأزمة الاقتصادية؛ فهنا يقف بنا الرئيس في الموقف الضدي، إمّا العودة للنفي الكليّ للاقتصاد إمّا وجوده. فهذا الجدل النظري والعملي حوّل الثنائية الضديّة (الحاضر/ الماضي) يدفعنا إلى تخطي العقبات والصعوبات مهما بلغ حجمها لربطها المباشر بالتفاؤل والتتابع المنطقي العقلي. قناعته بالاتفاقات الأوروبية قناعة منه، بأن غاية الانفتاح والمنطلق على الصعيد الاقتصادي وإبرام الاتفاقيات، وهما جوهر النهوض والرؤية التفاؤلية التي تكفل مصالح لبنان السياسية والاقتصادية وهو جوهر لبنان.

إنتاجية البعد الواقعي

يتجلى البعد الواقعي في هذا الخطاب بالتفاؤل، وربط هذا التفاؤل بمستقبل لبنان الجيد، إن من حيث جغرافيته أو من حيث تاريخ شعبه وطموحه ومحبته للآخر. وما كان للحريري أن يطرح هذه الواقعية والإشكالية، لولا تأكده من منطلقاته والنتائج المتوقعة تجاه وحدة شعبه وتفاؤله، فهذه الرؤية لا تقطع لولا وجود نواة الوحدة الوطنية، وجوهرها المتثبت

بالتراث والتاريخ ووحدة اللغة، مهما عصفت بلبنان الأوضاع، والأهداف الاقتصادية الساعية إلى التطور الاجتماعي والثقافي، والخروج من عقلية الأنانية وحب الذات نحو التمحور حول التجارة والسياحة والصناعة والزراعة، لتحريك الدورة الاقتصادية ولحماية العامل من البطالة والخسارة.

فالكفاءة بالشعب اللبناني بخاصة في القطاعات المصرفية والتجارية والسياحية، لديها جوهر إنساني لبناني متأصّل فكريًّا بالاختلاف عن الآخر، والآخر هو الدول المجاورة عربية أم غير ذلك. فيعود الحريري ليربط تسلسل أفكاره بالفقرة السابقة حيث طرح الأسواق الأوروبية مفتوحة أمام اللبنانيين بشكل كبير جدًا، ليركز علة إرادة النهوض بالتبادل والتواصل بين أفراد الوطن والمجتمعات الأخرى، لتضمن انعكاسات واقعيّة تتماشى وطروحاته وإشكالياته إلى الوحدة والتعايش المشترك والتضامن والتبادل لبناء المجتمع الكلي. فتلك الأقطاب أساسية للتطور الاقتصادي، لينعم لبنان بالرفاهية وقيام مجتمع صالح. فالإصلاح الاقتصادي ليس عبر طرحه منطق التبادل فحسب، بل «الاقتصاد الحر الذي أخذنا به منذ الاستقلال وحتى الآن»

اعتمد على مبدأ التفاعل مع الواقع. هذه الحلول تستدعي التعاون على صعيد المجتمعات يؤلف بين الامتيازات الموجودة والنظرة الى المستقبل بتفاؤل. « إن باستطاعتنا عبر التركيز على الثوابت وعلى الحفاظ على الاقتصاد الحر وتصغير حجم القطاع العام، والإقلال من الإنفاق وإعادة النظر بالنظم الضرائبية الموجودة لدينا لتتلاءم مع أوضاعنا». إن فعل (استطيع) هو حصيلة المحاولات والإدراك المعرفي بالعقلي العملي والعلمي، والقيمة الإصلاحية علينا الاعتماد عليها والتعامل معها. فهي القادرة والفاعلة في إتمام مشروع الإصلاح لا مجرد وسيلة أو أداة لتحقيق ذلك، «دون أن يمس ذلك إيرادات الخزينة، وبالعكس علينا أن نجد وسائل لزيادة إرادات الخزينة، والعمل على تخفيض الفائدة».

عمد الحريري إلى مناقشة عدة أمور ومناقشته جاءت بشكل متسلسل وبشكل منطقي وجدلي، وصولًا إلى النقد المتكامل للأفكار والقضايا المطروحة، بغية الاقتراب من الحقيقة والتماس ما يستدعي ذلك من عملية تواصلية مع المتلقي مما يجعلها تخلق تواشجًا فكريًّا حجاجيًّا برهانيًّا، ينقل المخاطب إلى الإقناع بمقاصد الاقتصاد بالدلائل المادية والمحورية. ويطلب الحريري تضميد نزف الانحياز الاقتصادي بالوسائل الأنجح والأقدر، لذا طرق الحل أمام مطرقة النقد، فتجادل بالحجة وصولا إلى نتائج بحثية موضوعية.

ويضيف بقوله «كل هذه المؤشرات والعوامل تجعل من لبنان مركزًا أساسيًّا في المنطقة ومستفيدًا أساسيًّا من التطورات الحاصلة، فلبنان هو الأقل تأثرًا بهذه السلبيات». يناقش الحريري نظرياته بمنطق علم الاقتصاد ويجعل من منطقه هذا قيمة جوهريَّة حيث بدأت توحي المؤشرات بأن التوجه واضح باتجاه منخفض للفائدة. وقد شاهدنا تخفيض الفائدة على القطاع الخاص. تشير نظرية القيمة إلى مجموعة من الطرق لفهم كيف، ولماذا، وإلى أي درجة يعطي الأشخاص قيمة للأشياء، سواء كان موضوع التقييم فكريا أو شخصيا أو أي شيء آخر. فالكثير من نظرية القيمة يطمح إلى التجربة العلمية، وتسجيل ما يقدره الناس ومحاولة فهم سبب تقديرهم له، في سياق علم النفس وعلم الاجتماع والاقتصاد. طرح الحريري المشكلة وأرجأ تلك المشكلة إلى الحرب، ووضع الحلول من جهة القطاع المصرفي والسرية المصرفية بالحل الرأسمالي، وعنصر العمل على تخفيض الفائدة عليها ويفتح النقاش الجدليّ «المؤشرات توحي بأن التوجه واضح باتجاه خفض الفائدة كما تكلمنا سابقًا، وإن تأخر إلى بضعة أشهر لظروف معينة، لكن بدأنا الآن نرى مؤشرات واضحة نحو تخفيض الفائدة على القطاع الخاص».

ويعلل الحريري بأن المفهوم القيمة يصبح مرتبطًا بالأسواق الأجنبية والتجارة والسياحة وخفض الفائدة على القروض للأعمال والصناعات في القطاعات الخاصة. ويأتي فعل «نرى» ليسقط الوضوح على المؤشرات والتأكيد بتخفيض الفائدة، ويأتي تكرار كلمة المؤشرات (ثلاث مرات) لتتبعها كلمة الموضوع (ثلاث مرات)، ليأتي دور التصورات للتطورات الحاصلة في المنطقة وتتبعها كلمة السلبيات (ثلاث مرات) في نهاية الجملة؛ لتكون مبتورة دون وضوح «وإذا كان هناك من سلبيات، وهناك سلبيات من هذه التطورات فلبنان هو الأقل تأثيرًا لهذه السلبيات» يقابلها تكرار كلمة لبنان ثلاث مرات في المقطع ذاته. هنا يجادل الحريري فيبيّن الآثار السلبية لنظريته بالاقتصاد، وما هي حصة لبنان من الاستفادة من أن يجعل لبنان مركزًا أساسيًّا، ومستفيدًا من كل التطورات والأسواق والاقتصاد الحاصل في الدول المجاورة والدول الأوروبية؛ فهو لم يكن فقط ناقل للحدث بل أظهر موقفه بالوضع.

هذا التركيز يظهر حرصه على مستقبل لبنان وخوفه من السلبيات، ولكن يطمئن الحضور أنه لن يحصل سلبيات وإن حصل فأقلّه على لبنان. وهذا التركيز المتجسد بالتكرار يظهر خوف وحرص الحريري الذي يتحدث مع وجدانه وضميره على مستقبل لبنان، لأنه مركز مهم بحضاراته وتراثه وثقافاته وتراثه وأنظمته وتاريخه. فهذا التزامن

بالخوف والحرص والتفاؤل يختمه في خاتمة الخطاب، ليؤكد الرئيس بعد ذلك رؤية تتماشى مع رؤيته وخياراته وأحاسيسه وإيمانه بلبنان القوي. ولولا تعابيره المتجسدة بالاستفهام، الاستفهام الذي وضعه الخطيب الذي لا يريده منه الغموض، إنما يريد أن يطرح الأمل والتأمل في العشر السنين المقبلة «أن يضع مؤتمركم تصورًا للبنان خلال العشر سنوات المقبلة، كيف سيكون؟ ما هو دوره؟ وما يحتاج إليه؟

فالتقنية الاستفهامية المستفيضة باستحضار ما يعد للاقتصاد وللمستقبل وللوطن وللبنانيين، هي هذه المسؤولية الكبرى التي تضع الحريري أمام ضمير المفرد الخاص(برأي)، ونقله إلى الدائرة الشعبية الأوسع إلى ميم الجماعة (مؤتمركم)؛ لينقل التعبير من الأنا الانفعالية الواردة في تحمّل المسؤولية إلى الجميع تجاه اقتصاد الوطن. وليشكل المتلقي المحور الأساسي لهذا المؤتمر من ناحية الشراكة في إبداء رأيه، بالخروج من الأزمات بوضع الحلول الملائمة، ليزداد التأثير بين المرسِل والمرسل إليه، ليتماشى «مع ما تفكر به الحكومة في الوقت الحاضر، وفي المستقبل إن شاء الله «. ويريد هنا إعادة الطموح اللبناني إلى الساحة الممتدة على مساحة العالم، وذلك من خلال أبعاد فكرية وعقلية وعملية ورؤيوية لتتوافق مع رؤية الحكومة بأبعادها المختلفة. ويشير الحريري إلى الدلالة والنتيجة معتمدًا بذلك منحى الإقناع بنسج خطابه، وفق أسلوبية التكرار المؤدية إلى تشبّع المتلقي، مما أظهر ارتفاع حدة التأثير على المستقبل وارتباطها مع تواتر التشبع الاقناعي المرتبط بالنتيجة ويؤدي إلى الاستجابة عند المتلقي. ويختم بالبعد التأثيري الديني الصادق بتعبير «إن شاء الله» وكأنه يوعد اللبنانيين من بعد الله عز وجل.

أظهر الحريري أنه ناقد اجتماعي وسياسي واقتصادي في هذا الخطاب، إذ هناك علاقة وثيقة بين الاقتصاد والمجتمع، فأرسل المرسِل بصمات تأثيرية عبر أسلوب التأثر والتأثير. وبالتالي أدى إلى الإقناع والتأمل بمستقبل واعد، حيث كان أقرب إلى الفلاسفة والعلماء منذ القدم، في ظل عدة نظريات ليبيّن على أساس المنهج التحليلي من خلال أهم الأنظمة التي نشأت على صعيد علاقة الفرد بالمجتمع.

كلمة في حفل إفطار اتحاد جمعيات العائلات البيروتية

يقول فيليب بروتون: الإقناع واحد من الحالات الأساسية للتواصل، وذلك تبعًا لكون القصيد هو التعبير عن إحساس أو حالة أو نظرة خاصة إلى أقصى درجة لمقام ما، أو إضافة إلى ذلك، الإقناع، أي التوجه إلى المستمع بالمبررات المقبولة لتبني رأيٍّ ما».

إذا أمعنا النظر إلى فقرة الخطاب تبدو لنا يسعى إلى التأثير في سلوك المخاطبين وهو سلوك الوحدة والتماسك والبعد عن التشرذم والأذى. وهو خطاب يبدو لنا ويكشف أمامنا باعتباره ينطوي على طاقات حجاجية جبّارة.

يقول الحريري:

منذ فترة وأنا مبتعد عن الكلام، وأعتقد أنه في هذه المرحلة من الأفضل لنا أن نراقب الأمور من أن ننخرط فيها، ونتيح فرصة للحكومة لكي تُظهر ما لديها، عسى أن تنجح في مهمتها التي آلتها على نفسها، ولكني أعلم أن كثيرًا من بينكم يتساءل عن المستقبل وعن الأوضاع العامة....

وتابع: «عندما قدمت استقالة الحكومة والاعتذار، جاء كثيرون يقولون إنه في آخر الاستقالة هناك سطران تضمّنا العبارة الآتية: أستودع الله لبنان الحبيب».

سألوني ماذا يعني هذا الكلام؟ يعني ما قلته بالضبط أن لبنان واللبنانيين وباستمرار إيمانهم بالله سبحانه وتعالى كبير وثقتهم بأنفسهم كبيرة..... وختم: «في كل مرة نجتمع أشعر أكثر فأكثر، بأن بيروت وأهالي بيروت أعطوني أكثر بكثير مما توقعت، وإن شاء الله يكون ما أخذته منكم وأعطيتموني من دعم ومحبة وثقة، أن أكون على قدر هذه الثقة والمسؤولية التي أوليتموني إيّاها، كل عام وأنتم بخير والله يوفقكم جميعًا ويوفقنا لما فيه خير هذا الوطن وخير هذه المدينة العظيمة»[1].

من المعلوم أن افتتاح الخطبة يكون الهدف منه إثارة اهتمام الجمهور وتهيئته لتقبّل مضمون الخطاب، ويمثل هذا البعد الأخطر في كل بلاغة، إذ الغاية من النهاية هي التأثير في هذا المتلقي. والواقع أن كل التوقعات الأخرى لا تكتسب الأهمية إلا عندما تجد الصدى المناسب والمطلوب في المتلقي. وهذا ما يسميه أرسطو الباتوس. إن محاولة التحكم أو التأثير في الإنسان بواسطة اللّغة هو ما يدعى الحجاج ويكون هو العمل والتقنية والعلم. وإن توجيه الحريري خطابه للأسر البيروتية بكلمات مقتضبة تحمل في طياتها أبعاد حجاجية وذاتية وواقعية نعانيها في كل مراحلنا السابقة والحالية، وهي المرحلة الانتقالية بين الحكومات المتعاقبة على لبنان. فالترقب أهم من الكلام في هذه المرحلة والكلمة أهم من الخطابات في بعض الأحيان، لأن الحجاج هو كلمة. هذا يعني أن اللغة التي نتوسل بها في الحجاج هي من جنس اللغة الطبيعية، التي يثقفها الإنسان ويهذبها بضروب الإيحاءات، هذه اللغة المعتمدة في الحجاج بعيدة كل البعد عن تلك

(1) د سعيد اللحام، محمد، مسيرة الشهيد رفيق الحريري، نشاطات الأسرة الاجتماعية والإنسانية،المركز الثقافي اللبناني، ص 137-136-135.

المعتمدة في العلم. بهذا وضعت لغة الحجاج وهي لغة اصطلاحية تعاقدية مصنوعة لأداء دور محدد غير مفيد للاستعمال العلمي أو التقني من أجل إحداث تغيير، أو تثبيت رأي المتلقي أو سلوكه.

لا شك أن الفقرة تعجّ بفيض من التجارب الحجاجية الدافقة بفضل الاستعارات التي تضارع القوة والحصن والوحدة، وهو ما يخرج المتلقي من دائرة العصبية والتشرذم إلى الوحدة الوطنية بدائرة التمعن العقلي والفكري. إذ لا يتركنا الرئيس قلقين بل يعدل موقفنا وموقفه إزاء الحكومة وما يحدث فيها وكيفية التعامل مع الوضع الذي ألمّ بنا. فهناك تلك الاستعارة التي تكشف عن هذه النوايا الحجاجية. هناك «الإجهاز عليها، وضرب حماتها» أي التمسك بالوطن إلى الوحدة «أوقات الشدائد».

هذه الفقرة مقطع خطابي، علاوة على بلاغته الدافقة، واجهة حجاجية إقناعية، إنه يعدل ويرسخ رأي الرئيس وإحساسه بأهمية الوحدة ضمن إطار التنوع، ووضع التنوع في إطار الوحدة لانها الحصن الوحيد في التحديات ومواجهتها. هذه البراهين العاطفية أو الانفعالية ممزوجة بالبراهين العقلية؛ تسمو بتلك الحجج عن الأوصاف التي تكتفي فقط بنقل الوقائع كما هي، والتي تكون عديمة الفعالية إلى إشغال عناصر شاعرية وعاطفية تتوقد فيهما الحجة العقلية التي تعوض بالبلاغة الضرورية للتأثير في الآخر.

أضاف الحريري بخطابه فقال « أنتم تعلمون أنني بطبعي متفائل وهذا التفاؤل أثبت أنه حقيقة ولكن من دون أدنى شك لدينا تساؤلات والكثير من علامات الاستفهام ولدينا تخوف ولكن لدينا أيضا تاريخ، تاريخ هذا البلد يقول إنه مهما كانت الصعوبات فاللبنانيون قادرون بإيمانهم وثقتهم بأنفسهم على تخطي الصعاب». قدّم الرئيس القليل من المقتنعات مقابل الكثير من المخيلات، بينما أنه يجوز للخطيب أن يستعمل القليل من المخيلات مقابل الكثير من المقتنعات، وذلك حتى الإقناع الذي يعتبر هدف هذا الخطاب. «لأن الغرض في الصناعتين (المعاني واللغة) واحد، وهو أعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثر لمقتضاه. فكانت الصناعتان متآخيتين لأجل اتفاق المقصد والغرض فيهما»[1].

القبول والتأثر مسعًى حجاجي واضح أقامهما الحريري في بلاغته ضمن خطابه في قول «أنتم تعلمون»، قدم هذا التعبير محاورة في أسس لمناهضة القيام بالوطن لأن الوطن للجميع ولذلك استعمل ضمير جمع المتكلم «لأنهم قادرون بإيمانهم وحبهم للوطن أن

(1) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص361.

يشاركوا في صناعة القرار». والواقع أن هذا الشعب هو الضمير وهو العنصر الأساسي في مقام الإغراء الذي تقيمه البلاغة. إنها تمثل ضرورة الإقناع المكثف «من دون أن يتوافر إمكان الاعتراضات أو الانتقادات، إذ إنه من المتعذر أمام المتلقي للخطابة هنا وضع الأسئلة أو مساءلة الآثار التي يحدثها إغراء الخطابات. ففي مقابل الحشود، يمكن بسهولة إقامة واقع إقناعي، بل قهري، للخطاب البلاغي»[1]. فالشكل الخارجي لبلاغة الخطاب الحريري لا يسمح بإنتاج المعرفة فحسب، بل إنه يزيل الشك واليقين بمستقل؛ يطرح الحجة والدليل على نجاح المواطن للخروج من الأزمات هو صراع اللبناني مع تاريخ عبر الأزمات التي مرت على لبنان.

أمام هذا الحشد الإقناعيّ أمام المستمع المكوّن من الأسر البيروتية، وحيث الخير الزمني غير المحصور بمنطقة أو زمن، وحيث الموضوعات المعروضة للمناقشة معروفة، لامجال إلا لإنتاج المعرفة واليقين لأن الخطيب المتمكن من خطابه لن يعجز عن الكلام المقنع أكثر من أي صانع آخر، فسلطة الفن الخطابي أعظم سلطة. إن أفعال الناس تتخذ نقاشًا لأنها بحث غامض، ويتطلب الدقة في الاستدلالات، بقدر ما يتقبله الموضوع المطروح، فلهذا لا يمكن إخضاع الأفعال الإنسانية لأي قاعدة ثابتة ودقيقة، وبالأحرى دراسة خاصة لأن لكل واحد منها يكون تأثيره أشد غموضًا فهي لا تندرج ضمن فن منتظم، ولا في أي سلوك منتظم وتكون تبعًا لحالات استعداد والمتلقي ومدى الاستجابة لكل المؤثرات في اتجاه تعديل الإحساس أو الرأي أو السلوك.

الواقع أن المناقشة بين طرفين مفكرين وهما الأسر البيروتية والرئيس غير مستعينين بأي شكل من أشكال السلطة والضغط أو الإرغام تحقق البلاغة الحقيقية، أي الجدل. هذا الحوار أو الجدل او النقاشات بين الخطيب والجمهور، تنتج المعرفة والتعبئة أو التحريض الجماهيري. وبهذا الخطاب يصل الحريري إلى تعريف من أفلاطون على لسان سقراط يقول: «إنّ البلاغة ليست في حاجة إلى معرفة ماهية الأشياء التي تتحدث عنها، إنها البلاغة بكل بساطة قد اكتشف أنها أداة تستخدم للإقناع، والنتيجة هي أنها أمام جمهور من الرعاع تبدو كأنها تعرف أكثر مما يعمله العلماء»[2].

يذهب الرئيس إلى إدخال مشتركًا ثالثًا في الخطاب والمناقشة وهو التاريخ، تاريخ هذا البلد يقف شاهدًا وحجة مع الرئيس أمام الجمهور، والذي يؤكد قدرة اللبنانيين في تخطي الصعاب. فهذا الحوار الثلاثي يتكون في ثلاثية متخاطبين مختصين في مجال المطروح

(1) - Canto, Monique, “introduction” in. Platon,Gorgias,P.61.

(2) Canto, Monique, “introduction” in. Platon,Gorgias,P149

للمناقشة، وحيث لا يحتكم إلا إلى المعرفة القابلة للتفنيد في أي لحظة، ويستبعد فيها أي نوع من أنواع السلطة القهرية، بمعنى أن المعرفة والتماس الحقيقة هما المقياس الوحيد الذي يتحكم بالخطاب. وهذا النقاش أو هذه الصناعة البلاغية هي أقرب إلى النقاشات التي تقوم بين العلماء والمختصين وبين المدرّس وتلميذه. «نحن نمثلكم وإن شاء الله نمثلكم خير تمثيل الى حين انتهاء المهمة التي أيدتمونا فيها وهي عند الانتخابات النيابية المقبلة. فالأمر يعود لكم إذا كنّا قد مثلناكم كما يجب أو أن هناك من قصر بالتمثيل، والمحاسبة الشعبية هي الأساس». ارتبط الخطاب بالجدل، إن لم نقل مترادفًا معه. وكان الكشف عن الفائدة التي تهمنا في هذا النص والتي نجنيها من الجدل المتعلق هي التواصل مع الآخر. فعل (نمثلكم) وفعل (أيدتمونا) لأن من الضروري الإلمام بالآراء العامة التي يسلمون بها. إذ بذلك تتيسر محاولات إقناعهم برأي الرئيس. كما تتيسر محاولات صرفهم عن القلق والاضطراب الذين ضربا المنطقة حين قدّم الرئيس استقالته 2004.

وفي هذا يكون التساؤل ملجأ حينما تستحضر أحد تعريفات أرسطو للخطابة «الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان»[1]. هذا التحديد للخطابة دال على الأجناس الخطابية الثلاثة، أي التشاورية والقضائية والاحتفالية. فقصد الحريري الجدل لأن الجدل ضرب من ضروب الخطابة الذي يقصد به إلى ضرب من الرياضة المعنوية واللفظية، وإلى خطاب يراعي فيه الحريري اقتناعات المخاطب لأجل تثبيتها أو تعديلها. يجعل جدله محيط بكل الأمور ليحصل على إقناع العامة، ويجعل جدله محفل في التجمعات الشعبية والمحاكم والمحافل العمومية. وفي هذه المقامات مخاطبة المجموع مخاطبة شفوية تكون بغاية الإقناع والتحفيز على الفعل.

إن قيم العدل والظلم، والجميل والقبيح، والخير والشر، في خطاب الحريري، تنِدُّ عن التقويم الكمي حيث تعيش في كنف المقامات الثلاثة السابقة. العدل والظلم يلازمان الخطابة القضائية، الجميل والقبيح يلازمان الخطابة الاحتفالية في الجمعية العامة، الخير والشر يلازمان الخطابة الاستشارية في مجلس الحاضرة. هذه المحافل والمقامات هي الحلبة التي يتبارى فيها الخطباء لا العلماء أو الفلاسفة. وكل هذه الموضوعات ترتبط بالفعل والشأن الإنسانيين ولا تستجيب، إلا في الخطابة. فهي تنأى عن الغموض والأسرار والاستدلالات المعقدة. وحينها نتذكر عبارة أرسطو الآتية :»لكل واحد من هذه

(1) أرسطو، الخطابة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، ص29.

الأجناس غاية مختلفة، وبما أن هناك ثلاثة أجناس من الخطابة، فإن هناك أيضا ثلاث غايات. فبالنسبة إلى الخطيب المشاور، نجد الخير والشر إذ إن من ينصح يقدم ما يوصي به اعتباره الأحسن وذلك الذي ينهى عما ينكر باعتباره شرًا أمام كل الاعتبارات الأخرى، مثل العدل والظلم، والجميل والقبيح فمندرجة كلواحق. وغاية الخطيب في المنازعات القضائية هي العدل والظلم، وفي هذه الحالة أيضا تندرج سائر الاعتبارات كلواحق. وغاية من يمدح أو يذم هي الجميل والقبيح، وتلحق سائر الاعتبارات بهذين»[1].

تابع الرئيس قوله : «عندما قدمت استقالة الحكومة والاعتذار، جاء كثيرون يقولون إنه في آخر الاستقالة هناك سطران تضمّنا العبارة الآتية: «أستودع الله لبنان الحبيب". سألوني ماذا يعني هذا الكلام؟ يعني ما قلته بالضبط أن لبنان واللبنانيين وباستمرار إيمانهم بالله سبحانه وتعالى كبير وثقتهم بأنفسهم كبيرة». اتسم خطاب الحريري بالمجال الرحب، مجال القيم حيث لا مجال للاختيار، فهي محسومة حسمًا نهائيًّا. إنه مجال واضح وغير غامض وهو المستند إلى أي أساس ضروري، كما هو الأمر بالنسبة للعلوم.

من أفضل من الله تعالى بتوكيله أمر لبنان؟ فالعلاقة لم تعد بين الجمهور فحسب، فهي علاقة مع الله وتوكيله أمر لبنان، أم لحبه الكبير لبنان من ناحية، ومن ناحية ثانية الجو العام المسلم والمسيحي الذي يؤمن بالله فتزداد ثقته بالشخص المؤمن. عللت هذه الجملة مضمون الخطاب بما فيه رؤيته الإصلاحية مع تلاؤم الأديان لحب لبنان لأن الهدف واحد، والله واحد ولبنان شعبه واحد. هذه الرؤية الإصلاحية تحوّل المتلقي المتأثر بالخطاب الموجه إليه إلى التشديد والعناية الأساسية من الناحية السيكولوجية والنفسية والثقافية والإيديولوجية إلى عمل بالغ الأهميّة وهو السكينة.

فالحريري عالم بحالة المتلقي وبنفسيته وتفكيره وإيمانه؛ ولكي يتمكن بالانفعالات التي يحب إثارتها، هو أن يقدم عبارة «أستودع الله لبنان الحبيب»، لأنها عبارة تحمل مجموعة إيديولوجيات وسيكولوجيات يميل الناس إليها بالفطرة. وهذا التحكم في الانفعالات يجعلننا ندرك بوضوح السبل التي تجعلنا نقود المتلقي في الاتجاه الذي نريده. بل ربما تجعلنا هذه المعرفة على علم بالوسائل التي ينبغي أن نتوسل غاية الإقناع. فالخوف على مستقبل لبنان وإيداعه بين يدي الله، والتفاؤل الذي يمتلكه تاريخ الحريري، وثقة اللبنانيين به بعد الحرب الأهلية يناسبهما جنس واحد من الخطابة. وهي الخطابة القضائية الاستشارية حيث يخطط للمستقبل والحاضر معا، ويكون أيضا إثارة المتلقي لرفض

(1) Aristote,Rhetorique, ed. Iivre de poche, p.195

الواقع والتأمل بمستقبل متغاير.

يقول ميشيل مايير :« إن القدرة على الحجاج الجيد، أي القدرة على الإقناع، تقتضي المعرفة بما يمكن أن يحرك الذات التي نتوجه إليها بالخطاب، أي معرفة ما يحركها»[1]. فالرئيس جعل المخاطب أمام ما يملكه من إيمان ويجعله يحسّ بهول ما يتركه بيد الله (عز وجل)، فإن الإنسان المؤمن سيكون أكثر حساسيّة أمام هذا النوع من الحجج، وإنّ فِعلَ الإيمان سيحرك أكثر مما يمكن أن يحركه رفض الفعل. وعلى كل حال فإن هذا المقوم النزوعي ينبغي أن يراقب من جهات الثلاث. أي تحديد الحالة النزوعية التي يتحملها المتلقي أو المستمع، وتحديد الشخص الذي يتوجه إليه هذا النزوع أو الهوى، وتحديد المسببات لهذا النزوع. إنّ أي واحدة من هذه الزوايا يمكن أن تسخر بفعالية إقناعيّة في إيقاد نزعة أو في إخمادها.

البعض فهم من هذا الكلام أنني لا أريد أن أستمر في العمل السياسي. الحقيقة ليست كذلك ولكن هناك بعضًا منها وهي الآتي: لقد مثلت بيروت منذ العام 1996 وحتى الآن الأمر يعود إلى أهالي بيروت إذا أرادوا دعمنا فنحن إلى جانبهم، وإذا أرادوا غير ذلك فنحن نحترم إرادتهم. وبالتالي ما عنيته أنني بتصرف هذه المدينة طالما أن أهلها يريدونني أن أمثلهم.»

يقول أرسطو :«إنني أسمي المضمر قياسًا خطابيًّا، وأسمي الشاهد استقراءً خطابيًّا. كل الناس يبرهنون على إثبات ما، إما بالشاهد وإمّا بالمضمر، ولا يوجد غيرهما من أجل هذه الغاية»[2].

نحن أمام برهان منطقي يسميه أرسطو قياسي، فقدم الحريري قياسًا منطقيًّا علميًّا انطلق من مقدمة كبرى وهي القياس المضمر، وأن بعض الناس وضح لها إنه لا يريد العمل السياسي، فهو عمل قياسي صغير مُسَلّم به ولا يحمل الاحتمال عند كثير من العامة. وهذا مجرد احتمال لأن الصادقين والمخلصين والأمناء يحالفهم النصر دائمًا. فالمقدمة الكبرى تلتها الصغرى، ثم الاستنتاج في آخر الفقرة لأنه يتضمن موضوعًا واحدًا. فهذه العبارات جاءت متراصة متلاحقة الواحدة تلوى الأخرى، لتوضح اللاحقة الجملة السابقة ولتقف بعبارات منطقية علمية.

تظهر الحجج المضمرة التي تأتي في الشاهد بعد طرح الفكرة العامة، فنجد الحجج المضمرة في قوله :» إنني بتصرف هذه المدينة طالما أهلها يريدونني أن أمثلهم.» لو تصور أهالي بيروت المشهد المعاكس في عدم انتخاب الرئيس، سيقوم المتلقي باستقراء

(1) Michel Meyer, (introduction), Aristote, Rhetorique, p 158.

(2) Aristote,Rhetorique, ed. Iivre de poche, p 85

الخطاب واندماجه مع الواقع، فيتذكر الحرب الأهلية التي جرت واستمرارها ولم تنتهِ إلا بعد حضور الحريري وقيامه باتفاق الطائف. فيرى المتلقي أنه مجبر ولا مخير باختياره ليضع الرجل المناسب في المكان المناسب، من أجل استمرار الاستقرار في الوطن. هذه الصورة السمعية مسارها الحيّز النفسيّ والفيزيولوجيّ الموجّه للمستقبل يقول أرسطو:»لا يقوم الشاهد على علاقة الجزء بالكل، ولا علاقة الكل بالجزء، فحينما تقدم لنا قضيتان من الجنس نفسه، وتكون إحداهما أشهر من الأخرى، فإننا بصدد الشاهد أو المقارنة».

حينما يؤكد لنا الرئيس أنه يسعى إلى كسب أصوات الشعب، فإنما هذا يعني العودة إلى السلطة بقرار منهم، وهذا القرار سيؤدي إلى الاستقرار والاستمرار به، مما يعني الازدهار والتطور بالصناعة والتجارة والاقتصاد. فإن كل هذه الحالات تنضوي تحت القضية العامة الدالة إلى الانتخابات واختيار الأفضل للوطن ولأبنائه.

ختم الرئيس «في كل مرة نجتمع أشعر أكثر فأكثر، بأن بيروت وأهالي بيروت أعطوني أكثر بكثير مما توقعت، وإن شاء الله يكون ما أخذته منكم وأعطيتموني من دعم ومحبة وثقة، أن أكون على قدر هذه الثقة والمسؤولية التي أوليتموني إيّاها، كل عام وأنتم بخير والله يوفقكم جميعًا ويوفقنا لما فيه خير هذا الوطن وخير هذه المدينة العظيمة». قصد الرئيس التعظيم ليستقطب الإجماع (أهالي بيروت أعطوني أكثر بكثير مما توقعت)، فإن الحجاج لا يكون له داعٍ، بحيث يفسح المجال أمام المقوم التفخيمي الذي يكتفي بتفخيم الأعمال المتفق عليها عند كل المتلقين. إن المبالغة والتزيين المتوسل بالتشبيهات والاستعارات والتوازي؛ هي المسيطرة في خاتمة الخطاب، كما نجده عند البلاغيين المعاصرين حيث يجيدون أصل مفهوم الأدب في هذا الجنس الاحتفالي من الخطابة.

هذا الخطاب من مقدمة وعرض وخاتمة تميز به خطاب الحريري الإقناعي والذي ينضوي تحت الأجناس الثلاثة (التشاورية والقضائية والاحتفالية). وهذه الأجناس وليدة النظام الديمقراطي اللبناني بمحافله الثلاثة: الحشد الشعبي لانتخاب مجلس النواب، ويتشاور المجلس النيابي لانتخاب مجلس الوزراء، والذي يتشاور بدوره بشأن المشاريع المستقبلية التي تعني الحاضر والواقع، وانعقاد مجلس النواب والوزراء مع رئيس الجمهورية في الاطر العليا ولتشريع القوانين وتنفيذ المشاريع، حيث تلغى في هذه المحافل الخطابية الشفوية التي تلقى أمام الشعب على شاشات التلفزة والإعلام، وغايتها دفع اللبنانيين والحكومة إلى الفعل. غير أن الخطابة هي مجرد قطعة من مجال عريض هو الجدل الذي يقوم على استخلاص استنتاجات انطلاقا من آراء محتملة.

أرفع جاهزة دولية للإعمار
من نشاطات الأسرة الاجتماعية والإنسانية.

تسلم رئيس مجلس الوزراء جائزة الشرف الخاصة لبرنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية «إعادة إعمار لبنان»، ألقى الرئيس الحريري كلمة قال فيها : «أشعر بالفخر والاعتزاز اليوم للوقوف أمام هذا الجمهور الكريم الذي يمثل الأمم المتحدة، هذه المنظمة التي تمثل طموحات العالم مجتمعًا بالسلام والأمان والتعاون. إني مسرور بوجودي هنا لتسلم هذه الجائزة لأسباب عدة: .....

توجه الرئيس الحريري إلى مؤسسة الأمم المتحدة للإسكان بالقول: « لقد اخترت تجربة لبنان الإعمارية للاحتفاء بها كحلّ مثالي لبلدان عانت وتعلمت الدرس، وأرادت بناء المستقبل بسواعد أبنائها فنجحت بذلك. وأريد أمام هذه النخبة المتميزة من مثقفي العالم، وفي هذا البلد الزاهر الصديق للعرب والمسلمين أن أشكر لكم هذا التقدير، وأن أوجه باسمكم نداءً بإنقاذ حضارة القدس وبيت لحم ورام الله وغزة وبغداد والموصل والنجف.

وختامًا،..... إن الأمم المتحدة ستبقى أساسا في حياتنا وعبر الحوار والانفتاح والتفاهم سننجح في جعل العالم والأمم المتحدة يفهمون قضايانا أكثر. وينظرون في آرائنا ويعتمدونها. إن السلامة هي مصيرنا، لنعمل معًا لتحقيق هذا المصير، لنعمل دائمًا من أجل السلام، شكرًا لكم[1].

التحليل: تسلم الحريري جائزة الشرف الخاصة ببرنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية «وإعادة إعمار لبنان» . وألقى الرئيس هذه الكلمة وجعل من مقدمتها من أهم ما جاء في الخطاب، فمثلت مقدمة الخطاب النظريات الحجاجية الاحتفالية؛ حيث القصد وهو التفخيم والتعظيم بالمنظمة، وبمكانة لبنان الذي يكرم. فشكلت المبالغة والتزيين المتوسلات بالتشبهات والاستعارات حيث تتدرج تحت عبارات الشعور والفخر، وجعلت طموحات العالم تنتسب إلى الجمعية المتمثلة بالأمن والسلام والتعاون. وهذه الشواهد تنتسب أيضا إلى التمثيل بالوحدة والمحبة والتآخي بأسلوب سلس مرسل بعيد عن التكلّف ومحافظًا على المقوم التفخيمي بتكثيف الاستدلال والمدلول، فيكتفي بتوسع البلاغة إلى الحدود البعيدة وذلك عبر دمج الجدل بالصفات الإنسانية العامة، والتحاور اليومي العملي، في هذا النموذج ترتسم البلاغة الجديدة.

(1) د محمد سعيد اللحام،مسيرة الشهيد رفيق الحريري، نشاطات الأسرة الاجتماعية والإنسانية، المركز الثقافي اللبناني، ص 112-111-110-109-108.

والواقع أن الحريري يقف على آليات مشتركة بين كل أشكال الكلام، سواء النفسي والشخصي أو الثنائي أو الجماهيري أو الخطاب المختص في مجال القانوني والعلوم الإنسانية. وبهذا مثّل الخطاب فكر العامة والمثقفين والمتعلمين لتفعيل المخاطب. وبهذا التحول نقف عند شايم بيرلمان الذي تعمّد إبعاد الجوانب السيكولوجية التي استأثرت بالمقدمة جاءت على شكل تقرير الخطاب المناهض لخطة الخطاب. وفي الوقت ذاته يتطلب النقاش حولها الأخذ والعطاء وقد دعم الرئيس هذا الدخول الحجاجي القوي بالتشجيع (جميعا – الأمن – التعاون) لترسيخ تلك الحقيقة في ذهن المتلقي، كما أن فيه نوعا من الاستقرار. فمواقع الكلامات وتوازنها يوهم بدون تفكير بالصدق دون مغالطة أو غموض، بل يكاد يكون حجة على علم مسبق.

ومن هنا، يتضح لنا البعد الحجاجي الواضح، فهو ذو صيغة توجيه اثباتية، هذه الصيغة التي يقول عنها شايم بيرلمان وأولبريخت التعبيرية؛ وقد قسمها « إلى أربع صيغ إثباتية، صيغة إلزامية، صيغة استفهامية و صيغة التمني ذات دور حجاجي مهم قادر على تعديل الحقيقة واليقين، أو تعديل أهمية المعطيات في الخطاب»[1] . يعلن الرئيس من خلال مقدمته خططه وموقفه بقوة، لخطط السلام والتطور والتقدم، والمتلقي يعرف ذلك منذ البداية، ويعرف أن الحريري متيقن تمام اليقين من رأيه في هذا الخطاب وحاسم في موقفه منه وفي ذلك ما لا شك فيه من قدرة على التأثير فيه. ومن حيث الأسلوب في هذه المقدمة فضلا عن التشجيع يستخدم عبارة مأنوسة من قبيل العبارات المكررة، ونعني بذلك عبارة الفخر والاعتزاز. هذه القوالب تساعد على خلق وفاق بين الخطيب والجمهور، والاتخاذ بينهما فكرًا ووجدانًا وإثارتها ناتجة عن المجال التركيبي الدلالي الذي ألحقت به. « إني مسرور بوجودي هنا لتسلم هذه الجائزة لأسباب عدة»، بمعنى هي جائزة للشعب اللبناني من قبل الأمم المتحدة، ذلك الشعب استطاع أن يعيد حلمه. يفتخر الرئيس باختيار برشلونة الشعب اللبناني الممثل بالحريري لمنح هذه الجائزة. ويشكر عائلته الصغيرة بدعمها لكسب حب العائلة الكبيرة وتحقيق النجاح.

اتبع الرئيس الخطوات التالية في التمهيد: فبعد الافتتاح والافتخار، سرد مجموعة من الأفعال الفخرية، ليكون الهدف من هذا الافتتاح إثارة اهتمام المتلقي، وتهيئته لتقبّل مضمون الخطاب. فهو كسب أذن المتلقي لمصلحة الأطروحة التي يدافع عنها، وإثبات عمله وانتصاره على الحروب بالسلام والعمران وبناء المراكز وتعبيد الطرقات، النتائج

(1) Perelman (Ch.) et Tyteca (o.), Traite de l argumentation. La nouvelle rhetorique, Editions de L Universite de bruxelles, 3eme ed. Belgique, p. 207.

ظهرت في برشلونة وهي أكبر دليل على اعتراف الدول الكبرى على نجاحه. لم يكن اختيار برشلونة عن عبث لمنح هذه الجائزة، بل بما تمثله برشلونة من انتصاراتها على النازية والفاشية. حضور الحريري بين الرؤوساء، واحترامهم كلماته، وثقتهم به وبتاريخ نجاحه في التجارة، وسرعة النهوض من الدمار، وإعادة البناء بالسرعة غير المتوقعة.

وهنا يبرز نجاحه أيضا في الخطاب حين فنّد الأسباب ووظفها لتحقيق الغايات الثلاث التي ذكرت في الأعلى، وأنّه اهتم بالولوج إلى موضوعه الأساسي وهو الإعمار وبناء الذات اللبنانية؛ وبهذا ربط المقدمة بما سيأتي بعدها.

إن قراءة الأحداث كفيلة بوضع الحريري في مركز التكريم فالمبادرة إيجابية، والمنفتحة بالآراء والتواصل ترسم منطق الفعل ورد الفعل، وسلوك القبول والسعادة التي تطال كل اللبنانيين. وهذه الوقائع هي جزء من التاريخ والحريري حاضر بقوة في تلك الفترة. فالصراع حول تنفيذ خطته للنهوض بلبنان امتدت على مساحة الوطن بفترة زمنية ليست طويلة، وهنا لا يعني أن الحريري تصرف بالأفعال فقط، بل تصرف في اختيار الأحداث الكبرى والمفصلية في مسار الصراع لتحقيق هدفه.

وتحقيق نجاحه الواقعي انعكس على نجاحه الخطابي من ناحية بالأسلوب الحجاجي، إذ إن «انتقاء المعطيات أمر حاسم في الحجاج، بل إن أي حجاج يفترض وجود اختيار ما»[1] ، وليس عبثا أن يعقد شايم بيرلمان وأولبريخت تيتيكا فصلا بأكمله في القسم الثاني من مصنفيهما تحت عنوان « اختيار المعطيات وتكييفها لأغراض الحجاج»، جاء في مقدمة الفصل :« تشكل التوافقات (les accords) الموجودة تحت تصرف الخطيب والتي بوسعه الارتكاز عليها في حجاج معطى، ولكن هذا المعطى هو من قابلية الاستعمال المتنوع ما يجعل الاستفادة منه ذات أهمية قصوى، لذلك فمن اللازم لفت الانتباه إلى دور الاختيار الأولي للعناصر التي تستخدم كمنطلقات للحجاج، وكذا تكييفها خدمة لأهدافه»[2].

أضف إلى ذلك أن استحضار هذه الوقائع هو في حد ذاته فعل حجاجي، يقول بيرلمان وتتيكا: «إن القيام بانتقاء عناصر معينة وتقديمها للمستمع ينطوي مسبقا على أهميتها وملاءمتها للنقاش ... وبالفعل يمنح هذا الاختيار لهذه العناصر «حضورًا» يُعتبر عاملًا جوهريًّا للحجاج، كما يقول بيرلمان في كتابه «إمبراطورية البلاغة» إن اختيار عناصر

(1) Perelman (Ch.) et Tyteca (o.), Traite de l argumentation. La nouvelle rhetorique, Editions de L Universite de bruxelles, 3eme ed. Belgique, p.160

(2) Perelman (Ch.) et Tyteca (o.), Traite de l argumentation. La nouvelle rhetorique, Editions de L Universite de bruxelles, 3eme ed. Belgique, p.154

معينة نحتفظ بها ونقدمها في خطاب ما يجعلها تحتل موقع الصدارة في وعينا، وبذلك فهو يعطيها حضورًا يمنع من إهمالها»[1]. ثم تحدث عن التطورات اللاحقة لاستكمال الإعمار ويبدأ هدفه بالحوار، ولتثبيت خطته ومشروعه يواجه الإحباط حينًا، لأن البعض يعتبر هذا المخطط مستحيلا تحقيقه، يهدف هذا القول إلى ترسيخ الصورة السلبية لسلوك المعارضين في ذهن المتلقي. وذلك باستحضار أنموذج عن رفضهم للإعمار وفي إطار تدخله لإعطاء الأحداث أبعادها الحجاجية.

أشار الحريري إلى أن معارضي الخطة، راهنوا على إفشال الخطة بأكملها بالاعتراض على جزء منها حين تحدث عن مراحل البناء. إن الحريري في هذه الجملة يحدد الدعامتين الرئيستين اللتين بنى عليهما الخطاب المناهض لحظة الإعمار بطريقة حجاجية، والتي سيستهدفها إذ استعمل طيلة الخطاب طرح الحجج في رسم الخطط بالنهوض وبالتحدي، الذي يتمثل بتحقيق وتنفيذ هذا المخطط والذي يحجّم الخصوم في دوافعهم السياسية لحكم البلد. فالانتقال من الإحباط إلى التحدي هو إفشال الخطة المضادة للراسمين لأنفسهم بذلك صورة المدافعين عن الوطن. وهذا الخطاب يكشف عن رسم الحريري لكيفية استراتجيات وتكتيكيات ومحاولته في تحقيقها، ومنطق الاستراتيجية والتكتكة هو منطق سياسي بامتياز، وهذا معناه أن أهدافهم لا تمت إلى سياسة الإعمار والانجاز بصلة، بل هي أهداف سياسية تنطلق من حسابات حزبية ضيقة. وفي ذلك كشف لعدم مصداقية توقعاتهم وخطاباتهم بانجازاته المحققة وباستلامه جائزة برشلونة.

يكمل الرئيس: «هناك متغيرات كثيرة حصلت وقد تحصل في الأشهر المقبلة، وقد تبقى الأمور على ما هي عليه، ولكن الأكيد أن لبنان موجود، بيروت موجودة، أهالي بيروت موجودون ومبادئنا وثوابتنا الوطنية لن نتنازل عنها». أدخل الرئيس هذه المسلمات ليوجه للمتلقي بطريقة خفية ذكية، حيث يلاحظ العنصر المضمر في هذا القياس هو النتيجة التي ترك المؤلف أمر استخلاصها لعناية وذكاء المتلقي، غير أننا لا نذهب بعيدًا حتى نجد في ثنايا كلامه ما يساعد على تكوين هذه النتيجة، ليبني المتلقي نتيجة القياس اعتمادًا على هذه المعطيات. من ضمن النتائج التي يمكن الخروج بها:

1 – علينا أن ننهض بعبء إعادة بناء القطاعات.

2 – كسب ثقة المؤسسات الإقليمية والدولية.

3 – التوافق والتوازي مع حشد اللبنانيين من أجل مستقبلهم.

(1) Jean cohen, le haut langage, p.172

النتيجة الأهم في الخطاب تأكيد نجاح الخطة الإعمار باعتبارها نوعًا من أنواع الحوار مع الحاضرين. إضافة إلى ما سبق أن استعان الرئيس به في حجاجه:

– استخدام الألفاظ المحسوسة لتجسيد المقصود بـ «الأنا» و»الآخر»؛ اللبنانيين\ الغرب\ منطقة الشرق الأوسط.

– إبراز العواقب واعتبارها خطيرة، من حيث استعمال ألفاظ ذات وقع قوي على المتلقي (في لبنان نعني عدم التكافؤ في طرق كثيرة منها التربية والصحة والكثير من الخدمات الأخرى). وفي هذا الإطار يستخدم عبارات تحيل المتلقي على أحداث واقعية، تحيل المتلقي الذي يعاني وعانى خلال فترة الحرب في لبنان، وما يزال يعيشه. ومعلوم أن الألفاظ تخضع في الحجاج للاختيار واستعمال تلك التعابير بعينها تخضع للهدف الذي يتوخاه. توجّه الخطاب إلى الأمم المتحدة بالقول: « لقد اخترتم تجربة لبنان الإعمارية للاحتفاء بها كحلّ مثالي لبلدان عانت وتعلمت الدرس، وأرادت بناء المستقبل بسواعد... «بهذا يعرض الخطيب نجاح التحليل الذي اعتمد من قبل الأمم المتحدة في لبنان. وبهذا البيان يفند فيه أمكنة الصعوبات والتحديات وبمغالطة المعارضيين له بفشل الخطة، وفتح الباب أمام إصلاحات ضرورية في العراق وفلسطين، وشد الثقة بين البلاد العربية انطلاقًا من تلك الفترة. يمكننا القول إن الأساس الحجاجي العام لهذه الفترة هو عرض الوقائع التي تم الوصول إليها، من تنفيذ خطة الإعمار والمقارنة في ما مضى من السنين العجاف. وما قد تحقق من استكمال الخطة، وتنفيذ ما بقي من الإعمار المتوازن في كل المناطق بكل ما للكلمة من معنى. وتظهر سلامة الحجاج في قوة العبارات بربط العمل بالقول، وقد أحاط كل الخطط بالمهارات التي تقتضيه الخطط الطامحة إلى خلاص ملايين اللبنانيين من الجوع، الفقر والتخلف، والى التعامل الحضاري بالعلم والتثقيف ونشر روح الإيجابية بين المواطنين.

يختم الحريري خطابه فيقول :»أريد أن أوجه تحية إلى الأمم المتحدة، إلى هذه المنظمة التي حملت على مرِّ أكثر من نصف قرن طموحات شعوب العالم بالتحرر والتنمية والأمان والسلام».

إن منح الأمم المتحدة هذه الجائزة للبنان يعني أن باب هذه المنظمة سيبقى دائما مشرعًا للدول التي تسعى إلى تحسين حياتها وحياة شعبها. إنّ لبنان دائما مشرع على الديمقراطية والحرية، وعلى كل ما هو نبيل على هذه الأرض، وفي مقدمته رسالة السلام والتسامح التي تحملها هذه المنظمة وكل من آمن بها. إنّ الأمم المتحدة

ستبقى أساسا في حياتنا وعبر الحوار والانفتاح والتفاهم، سننجح في جعل العالم والأمم المتحدة يفهمون قضايانا أكثر. وينظرون في آرائنا ويعتمدونها. إن السلامة هي مصيرنا، لنعمل معًا لتحقيق هذا المصير، لنعمل دائمًا من أجل السلام، شكرًا لكم»[1].

هذه الخاتمة ساهمت في تفعيل دور الأمم المتحدة والإعلاء من شأنها، وبالتالي إعلاء من شأن دور لبنان في تحقيق النجاح والخروج بسرعة من الحرب، وضمه في إطار حضارة التكنولوجية. وضمّه بالتالي إلى القرية الكونية عبر الحوار والتفاعل البلاغي، الذي انزلق به من برج التنظير إلى الخطاب التداولي بتفعيل البلاغة وجعلها تنفتح على الواقع. فتقوم بالتحليل النقدي لما هو سائد في الواقع بسبر أغوار المغالطات وكشف الحقائق، وبذلك مساعدة السامع على التثقيف لما يدور حوله بعدة أساليب لتكوين مناعته الذاتية، لكشف المغالطات السياسية التي تحاك ضد المواطن لمصلحة السياسي الشخصية، فيعامل أصحاب الخدع بنقيض قصدهم ليرد كيدهم في نحرهم.

وأخيرا يندرج هذا الخطاب في إطار عمل حضاري نضالي، مما يجذب المختصين في البلاغة للانخراط في تحليله، وخصوصًا المهتمين بنظرية الخطاب لأنه مسؤولية جسيمة. فنحن بحاجة إلى ثورة إعلامية يعرفها العالم للسعي الحثيث لتأويل الماضي الوطني والقومي، وتقوم التجارب الماضية، لمصلحة أطروحات سياسية صريحة حينًا، وضمنية أحيانًا. وفي عملية التأويل هذه تمارس كل الانزلاقات الخطابية كي لا يقف المتلقي العربي مستهلَكًا فقط بل يتكون لديه قدرة على كشف الخدع والأضاليل ويقف اللعب بعواطف الناس دون أي اعتبار ولا احترام للمستمع وللحقيقة. وفي ذلك إفساد للديمقراطية باعتبارها نظاما تخضع الاعتبارات المصيرية فيه للرأي العام عند المواطنين.

ومن هنا يكتسب التحليل البلاغي لهذا الخطاب أهمية قصوى، حيث تتدخل الحجج والضوابط ليرتسم حدود التخاطب المسؤول والمعقول والمتزن، الذي يسيّر المجتمع في الإيجابية، محافظًا للمكتسبات وحريصًا على تحقيق مكتسبات جديدة.

(1) د محمد سعيد اللحام، مسيرة الشهيد رفيق الحريري، نشاطات الأسرة الاجتماعية والإنسانية، المركز الثقافي اللبناني، ص 112-111-110-109-108.

قائمة المصادر والمراجع العربيّة

1. ابن منظور، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، 1994م.
2. أبو البقاء الكفوي، **معجم المصطلحات والفروق اللغوية**، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، بيروت، دار الرسالة 1412هـ، 1992م.
3. أرسطو، **الخطابة**، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الرشيد للنشر، العراق، 2011م
4. براون بول، **تحليل الخطاب**، ترجمة وتعليق محمد لطفي الزلطني ومنير التركي، جامعة الملك سعود، 1997م.
5. حازم القرطاجني، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3- 1986.
6. سعيد يقطين، **تحليل الخطاب الروائي**، المركز الثقافي العربي، ط1، 1988م.
7. سعيد اللحام، د. محمد سعيد، **مسيرة الشهيد رفيق الحريري،تصريحات الرئيس**، المركز الثقافي اللبناني، ط1، 2005م.
8. د سعيد اللحام، محمد، **مسيرة الشهيد رفيق الحريري، نشاطات الأسرة الاجتماعية والإنسانية**، المركز الثقافي اللبناني، ط1، 2005م.
9. محمد علي القاروقي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق د. لطفي عبد البديع و.د. عبد النعيم محمد حسنين، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1972م، ج2، ط2.

8. المصادر والمراجع الأجنبية

1- Aristote,Rhetorique, **philosophie-grands textes**, ed. livre de poche, librairie Decitre, 1991

2- Jean cohen, **le haut langage,Theorie de la poeticite**, Flammarion, 1979

3- Monique Canto, Platon,Gorgias, **L'Antiquite' CLASSIQUE**, "introduction et notes par M.C" in. Paris, Flammarion, 1989.

4- Perelman (Ch.) et Tyteca (o.), **Traite de l argumentation. La nouvelle rhetorique**, Editions de L Universite de bruxelles, 3eme ed. Belgique,

5- R .Fowler ,**Linguistic Outicism** ,Oxford university press, 1975,

المجلات والدوريات

الحوار المتدن، العدد 2979، عبد الرحيم الخلادي، «الخطاب وتحليل الخطاب»، 2010-4-18، ص1. نشر على موقعDr.khaladi.com